التفاعل الحضاري في افريقيا

عرفت القارة الأفريقية الكثير من الحضارات منذ آلاف السنين وعاشت تلك الحضارات فى حالة من التواصل و التفاعل تاركةً لنا العديد من العلامات و المظاهر التى تدلنا على ذلك. فقد شهدت القارة السمراء قيام حضارات قديمة مثل الحضارة المصرية القديمة و حضارة أكسيوم في أثيوبيا وعدد من الحضارات فى بلاد السودان وقديماً كان يطلق مسمى السودان على كل منطقة وسط أفريقيا من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً وعرف القرن الأفريقى حضارة بلاد بونت و عاش الجنوب الأفريقى حضارة زيمبابوى العظمى وتفاعلت تلك الحضارات مع بعضها البعض لتعزف أروع سيمفونية حضارية فى ظل التواصل التجارى و الثقافى والعلمى.

وتفاعلت قارتنا مع عصر الاسلام واستمرت حالة التواصل و التفاعل من خلال النشاط الاقتصادى و ازدهار التجارة عبر الطرق البحرية و البرية التى ربطت أنحاء القارة فى شبكة اتصالات هائلة كما الشبكة العنكبوتية فى عصرنا الحديث ونشأت ممالك و سلطنات اسلامية مزدهرة ونشط الحراك الثقافى و العلمى لا سيما مع مواكب الحج صوب الجزيرة العربية عبر مصر و شغف الكثيرين بتلقى العلم فى الأزهر الشريف.

تعالوا معى لنعيش سوياً فى سطور تلك الحالة الرائعة و لنستنشق عبق تاريخنا التليد.

شهدت الحضارة المصرية القديمة تواصلاً مع حضارة أكسيوم فى أثيوبيا حيث نجد الكنائس المحفورة فى الصخور مثل معبد حتشبسوت وحضارة نبتة وكوش فى السودان و يرى المؤرخون أن مملكة نبتة وعظمتها أهم فترة في تاريخ السودان والتي استمرت ما يقرب الألف عام من سنة ١٦٠٠ ق.م إلى سنة ٦٦٤ ق.م و يسجل المؤرخون أنها فترة من بين أطول الفترات التي سجلها التاريخ لممالك بشرية على وجه الأرض وتداول حكمها أكثر من سبعين ملكاً وكان بعنخي أشهر وأقوى ملوك مملكة نبتة التي تمخضت عن اتحاد ممالك السودان الشمالي من الشلال الأول (قرب أسوان حاليا) وترامت حدودها شرقًا بمحازاة البحر الأحمر وامتدت جنوبا إلى جبال الحبشة وغربا إلى حدود ليبيا الحالية وكان اسم العاصمة هو ايضا نبتة ويُقال أنها كانت العاصمة الدينية لعبادة الإله آمون رع حيث انتشرت الديانات المصرية في مملكة نبتة خلال الفترة المعاصرة لحكم الأسرة المصرية رقم ٢١. و يعود سبب انتشارها إلى لجوء العديد من الكهنة المصريين إلى السودان إثر خلاف مع بعض ملوك هذه الأسرة التي حكمت مصر خلال الفترة ما بين ١١١٠ ق.م و ٩٨٠ق.م .

و يُحكى أن الملك بعنخي عند قدومه مصر زار العديد من المعابد ، وكان يحلف بالإله آمون رع ، وقام بزيارة مدينة منف الدينية قرب القاهرة الحالية ، وقدم القرابين إلى وثنها الرئيسي بَتاح وغيره من آلهة.

وامتدت علاقات نبتة الاقتصادية آلاف الأميال خارج أفريقيا ، في إتجاه الشام والجزيرة العربية وفارس وروما وأثينا .... وكانت المنتجات السودانية من ريش النعام وسن الفيل والصمغ والبخور وجلود الحيوانات المفترسة والأليفة ، ومعادن الذهب والفضة والأحجار الكريمة وفاكهة الأناناس تصل إلى اسواق فارس عن طريق وسطاء من الحبشة عبر اليمن ، كما كانت نفس المنتجات تصل إلى روما وأثينا تحملها القوافل الشامية.

وقد كان تجار روما وأثينا والمدن التجارية على السواحل الشمالية من البحر الأبيض المتوسط على دراية تامة بأن بلد منشأ هذه المنتجات هو نبتة. ويتفحصونها للتأكد من ذلك فقد كان لكل منتج وبضاعة سعر حسب الجودة والأصالة التي عادة ما ترتبط ببلد المنشأ .

فى عام ٢٠٠٣م تم ادراج مواقع حضارة نبتة ضمن قائمة التراث العالمى على يد اليونسكو وذلك لما تحمله هذه الحضارة من سمات حضارية مميزة واستثنائية.

و هذه حضارة كوش فى السودان التى تماثلت مع الحضارة المصرية فى العديد من المظاهر مثل رموز

الكتابة و النقوش و تشييد الأهرامات و طرق دفن الموتى واقامة المقابر و بناء المعابد كما أنهم آمنوا بحياه آخرة مثل المصريين القدماء فكانوا يودعون الأدوات التى ألفها الميت معه فى المقبرة.

ويحكى لنا التاريخ قصة الملكة حتشبسوت مع بلاد بونت والتبادل التجارى بينهما وتوجد فى المتحف المصرى بعض القطع الأثرية التى تشهد بارسال الهدايا المصرية من خناجر وأسلحة كانوا يحتجون اليها فى مواجهة الأعداء ليبادلونها بالذهب و العاج و جلود النمر والحيوانات و أشجار البخور التى كانت تحتاج لها مصر لزراعتها على جانبى واجهة معبد الدير البحرى فى الأقصر والذى يحتوى أيضاً على نقش حجرى يوضح طريق الرحلة الى بلاد بونت.

وتلك حضارة زمبابوى ذات الأمبراطورية العظمى التى قامت على تجارة الذهب مع العرب و الهند من عام ١١٠٠م حتى ١٤٥٠م تاركةً آثاراً الى يومنا هذا مثل المسلات التى تشبه كثيراً المسلات المصرية كأحد دلائل التواصل الحضارى.

و قد عثر الأوروبيون على أطلال تلك الحضارة بالصدفة في أواخر القرن ١٩ أثناء اسكتشاف المنطقة الذي بدأ عام ١٩٧١م مما أثار جدلاً واسعاً بين علماء الآثار في العالم، ومع الضغوط السياسية التي مارستها حكومة السلطويين البيض في رودسيا على علماء الآثار لحملهم على إنكار أن هذا الأثر العظيم من غير الممكن أن يكون قد بُني على أيدي الزمبابويين الأصليين، اعتبرت الحكومة أطلال زمبابوي العظمى منذ ذلك الحين أثر وطني، وسميت دولة زمبابوي المعاصرة على اسمها.

و الجدير بالذكر ان زمبابوى شهدت دخول الاسلام اذ كان بها أكثر من مليون مسلم قبيل الاستعمار البريطانى لها عام ١٨٨٨م.

استمر التفاعل الأفريقى مع عصر الاسلام فكانت الهجرة الأولى و الثانية الى الحبشة بل كانت أفريقيا ملاذاً آمناً للهجرات العربية أعقاب الصراعات السياسية بين الدول المتعاقبة من أمويين و عباسيين وغيرهم.

و على الرغم من امتداد الاسلام الى شمال القارة السمراء عبر الفتح الاسلامى الذى حرر تلك الدول من الاستعمار الرومانى، الا أن بقية الدول الأفريقية عرفت الاسلام عبر العلماء و الدعاة الذين نشروا الاسلام بالحكمة و الموعظة الحسنة.

وفى هذا السياق يجب ألا نغفل العامل التجارى الذى لعب دوراً مهماً فى خلق حالة من التفاعل و التزاوج بين شعوب القارة ساعد عليه وجود عدة طرق للانتقال يذكر المؤرخون أن أهمها نهر النيل و طريق الساحل الشمالى الى المغرب وطريق الساحل الغربى من المغرب الى السنغال و الطرق البرية مثل طريق درب الأربعين بين أسيوط و دارفور و طريق واحة سيوه الى جاو و تمبكتو على نهر النيجر و الطريق الممتد من طرابلس الى فزان و تشاد وطرق أخرى بين تونس والجزائر و غرب القارة.

ازدهرت حركة التبادل التجارى بين بلاد المغرب العربى و دول جنوب الصحراء التى كانت تحصل على الملح لإحتياجها الشديد اليه بينما كان تجار بلاد المغرب يشترون المنتجات الاستوائية و شبه الاستوائية اضافةً الى الذهب ونجح التجار المغاربة فى نقل التجارة الأفريقية الى أوربا بينما أخفق الرومانيون فى ذلك من قبل.

هذا التفاعل ادى الى ظهور سلطنات اسلامية فى القرن الأفريقى و شرق القارة فى القرن السابع الهجرى .الثالث عشر الميلادى وعرفت باسم دول الطراز الاسلامى مثل سلطنات افات و شوا و هدية و شرخا و سلطنة سنار أوالفونج فى سنار على النيل الأزرق وسلطنة تقلى فى غرب النيل الأبيض و سلطنة الكانم و البرنو وواداى على بحيرة تشاد.

وتعتبر مملكة سنار أول دولة عربية إسلامية قامت بالسودان بعد انتشار الإسلام واللغة العربية نتيجة لتزايد الوجود العربي والتصاهر بين العرب والنوبة وقد تأسست هذه المملكة في عام 1504 وكانت تعرف أيضا ب"مملكة الفُنج" و"السلطنة الزرقاء" وكان لقب السنانير يطلق علي مواطنيها.

اهتم ملوك سنار بالعلم حيث اقاموا رواق السنارية في الأزهرالشريف من اجل طلاب مملكة سنار المبتعثين اليه, وشجعوا هجرة علماء الدين الإسلامي الي السودان للدعوه ونشر العلم وأنشأ أحد سلاطين مملكة سنار ويُدعي بادي الاحمر وقفاً بالمدينة المنورة لاستقبال الزوار من مملكته للاقامه هناك عند زيارتهم للاراضي المقدسة ولا يزال جزء من اوقاف السودان هناك. وانتشرت أيضا الخلاوي التي تعرف بالكتاتيب في السودان لتحفيظ القران الكريم وعلوم العربية والحساب.

أما سلطنة الكانم ـ بُرنو فهي دولة إسلامية قديمة نمت في شرقي بحيرة تشاد، وهي الدولة التي عرفت فيما بعد بدولة البِّرنو، عندما انتقلت إلى غربي بحيرة تشاد. وهي أكبر دولة نشأت في منطقة المراعي بين نهري النيجر والنيل ولقد ضمن لها موقعها الجغرافي الممتاز مصدرًا مهمًا من مصادر الثراء.

وتأسست سلطنة الوادای سنة 1635م من تجمعات إسلامية قبلية في تشاد واستفادت وداي من موقعها على طريق التجارة الى بنغازي، حيث كانت واداي وسلاطينها يرتبطون بعلاقات قوية بالحركة السنوسية في برقة التي ساندتهم ودعمتهم في مواجهة الاستعمار الفرنسي لأكثر من خمسين عاماً و وداي الآن مقاطعة ضمن جمهورية تشاد و عاصمتها أبّشي .

وفى غرب القارة امتد الاسلام الى مملكة غانة القديمة التى قامت قبل الاسلام و تحولت الى مملكة مالى التى أسسها قبائل الماندنجو مع مطلع القرن الثالث عشر ،ضمت تلك المملكة أراضى المناطق المعروفة اليوم بموريتانيا و السنغال ومالى و نيجيريا و النيجر و تشاد وصولاً الى حدود دارفور فى السودان.

ويذهب بعض المؤرخين أن عاصمة مملكة مالى هى مدينة التكرور التى تقع على نهر السنغال.

أطلق على شعب تلك المملكة اسم التكرورنسبةً الى العاصمة وعُرفوا بأنهم شديدى الولع بتلقى العلم فى الأزهر الشريف حتى صار لهم رواق يُعرف باسم رواق التكارنة و اليهم يُنسب اسم حى بولاق الدكرور فى محافظة الجيزة حيث كانوا يقطنون تلك المنطقة.

كما مثلت مواكب الحج لملوك هذه السلطنة الاسلامية أحد أهم روافد التفاعل الحضارى الأفريقى الى شبه الجزيرة العربية و اُشتهر منها موكب الملك "منسا موسى" أعظم ملوك السلطنة و الذى عُرف بفخامة موكبه الذى تحدثت به ملوك العالم لفخامته و بذاخة انفاق ذلك الملك للذهب و المال خلال رحلاته وقد حج للمرة الأولى فى عهد الظاهر بيبرس وللمرة الثانية عندما قدم الى مصر سنة ٤٢٧ هجرية وبحوزته هدايا عظيمة وذهب كثير و تجول داخل مصروكان برفقته عشرون ألفا من المغاربة وأرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون لمنسا موسى لمقابلته و استقبله فى بلاط السلطان واصطحبه الى القلعة وأنعم عليه بخيول وجمال واشترى ملك التكرور كتب فقه المالكية وعاد الى بلاده.

وفى منتصف القرن الخامس عشر ظهرت سلطنة سنغاى التى فاقت في سعتها وامتداد أطرافها إمبراطوريتي غانا ومالي الإسلاميتين و سنغاي اسم إقليم يقع في أواسط النيجر و التى صارت واحدة من أكثر البلدان الأفريقية ازدهاراً وكانت قبلة للعلماء.

كانت مملكة سنغاي أهم الممالك الإسلاميّة في غرب إفريقيا علمياً حيث تحولت بعض مدنها إلى مراكز علمية، وقام العلماء بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية العربية فيها عبر المساجد والمدارس والمجالس العلمية السلطانية، وتميزت هذه المراكز بمناهجها التعليمية وموادها الدراسية والإجازات والدرجات التي تمنحها لطلاب العلم، وقد انتشرت لذلك الكتب والمكتبات، وكان لها كبير الأثر في نشر الثقافة الإسلامية العربية.

و كانت جنّي احدى مدن سنغاى من أهم المراكز العلمية في السودان الغربي، تأسست في القرن الثالث الهجري، وقد أسلم أهلها مع ملكهم المسمّى كنبر، في القرن السادس الهجري، وكان إسلام السلطان المذكور أمام أربعة آلاف ومائتي عالم، , قد اعتنى الأساكي(السلاطين) بمدينة جنّي اعتناءً كبيراً، فبنوا فيها المساجد ومساكن لطلاب العلم، وأغدقوا عليهم وعلى أساتذتهم الأرزاق، ، وكان السلطان أسكيا محمد الكبير أوّل من عيّن القضاة في جنّي للفصل بين الناس وفق الشريعة الإسلاميّة .

ثم كانت أفخم المراكز العِلمية تمبكتو أو تنبكتو أعظم مدن السودان الغربي، أُسست على يد الطوارق الملثمين في أواخر القرن الخامس الهجري عِلى نهر النيجر، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنها أُسست عام ١١٠٠م و اشتهرت تنبكتو بجامعتها العريقة, والمتمثّلة في جامع سنكوري الذي كان يضاهي جامع القرويين بفاس، وزيتونة بتونس، والأزهر بمصر.

أما غاوو فقد كانت عاصمة مملكة سنغاي و تذكر بعض الروايات التاريخية أنها تأسست في أواسط القرن الثاني من الهجرة، وانتشر الإسلام فيها عند تمام القرن السادس الهجري .

قد شملت حركة تأسيس المدارس والمعاهد والمساجد في عهد أسكيا محمد الكبير مدينة غاوو، وأوقف

الحكام والأثرياء الأوقاف الكثيرة على المساجد والأئمة والمؤذنين والخطباء والمدرسين في مدينة غاوو.

وكانت المجالس العلمية تعقد ويحضرها الحكام، ومنهم أسكيا داود, وهناك مجلس الجمعة في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة، علاوة على المكتبات العامة التي كانت تتوفر في مدينة غاوو للبحث والمطالعة، ومن أشهر هذه المكتبات: مكتبة أسكيا داود، ومكتبة أسكيا محمد الأوّل، ومكتبة أسكيا محمد بان بن أسكيا داود

ويظهر مما تقدم دور مدينة غاوو الثقافي والعلمي، وهو ما جعلها مركزاً علمياً ثقافياً إلى جانب كونها العاصمة السياسية، الا أن تنبكتو وجنّي شهدتا نشاطاً علمياً وثقافياً أكثر منها.

ثم جاء الغزو البرتغالى ليحطم تلك السلطنة ويدمر معها المدن الأفريقية المزدهرة مثل كلوه و ممبسة و زنجبار و يحول طريق التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح و منه الى أوربا فخسرت أفريقيا أرباحها من التجارة و سادت حالة من الكساد الاقتصادى تبعها تدهور سياسى ومن ثم علمى وثقافى وأفسد حالة التفاعل الحضارى و الانسانى لتدخل القارة فى حقب من المعاناة تحت الاستعمار البرتغالى ثم تكالب الدول الاستعمارية الأوربية على القارة فاستنزفت مواردها و استغلت مواطنيها أبشع استغلال فى تاريخ البشرية.